الحج مائدة مباركة... !

محسن أسدي

إنه فعلاً مائدة ذات ألوان خيراتها كثيرة وبركاتها وافرة! وأنه حديقة غناء ذات أشجار باسقة وأغصان ناضرة وثمار يانعة وأزهار ساحرة!

يحار المرء من أي ألوانها يأكل! ومن أي ثمارها يقطف !!

فقد راح الكثيرون يكتبون عن فريضة الحج عن أحكامها وأهدافها ومقاصدها وتأريخها وموقعها... فأخذ كلّ واحد منهم رزقاً من مائدتها أوورقة من أوراقها أو ثمرة من ثمارها لعله يشبع بها شغف نفسه أو يطفئ بها فضوله ويروي ظماه... حتى غدت كتاباتهم جميلة خضراء عطرة، وكيف لا وقد اكتسبت جمالها ورونقها وفتنتها من تلك الألوان والأزهار... وقد ارتأيت عن ابتعد عن أحكامها الشرعية ولأترك المجال للأقلام أن تكتب ما تطرحه الأفكار من مفاهيم عن هذه الفريضة وما تجود به القرائح شعراً أو نثراً عنها وأن أقف محايداً بعض الشي ناظراً مكتفياً بما أقرأه هنا وهناك راضياً بأن أكون ناقلاً ما وفقت إليه ووقفت عليه من نظرات جميلة وآراء متينة على الأقل من وجهة نظري، تبين لنا عظم هذه الفريضة وقدسيتها وأثرها على النفوس المؤمنة الملبية الممتنعة عما يخلّ بأدائها وكمالها وأجرها... واقتبست ألفاظاً وجملاً، بل مقاطع، مما كتبوه، أو استخلصت المراد مما

دونوه، وصفا لها ولما تحمله من عطاء دائم لا يعرف النضوب، وما ينبغي لنا أو يجب علينا القيام به إزاءها، وهو أن نعي ما نفعل وأن نفقه ما نؤديه من مناسك؛ لأن الجهل فيها يعدّ منقصة في أدائها وفي معرفتها والاستزادة من أجرها وثوابها إن لم أقل خيانة لها.

وهذه صفحات قرأتها تتوفر على وصف رائع جميل للحج فرضاً، وللحج موقعاً، وللحج أهدافاً، وللحج ثماراً، وأيضاً تتضمن موقفنا كيف يجب أن يكون وبأيّ شي يجب أن يتصف؟.. لتكتمل الصورة التي بها يكون صلاحنا وخلاصنا ورشدنا ونجاتنا بل وحياتنا في الدنيا والآخرة باستجابتنا الرائدة والواعية: **﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم..﴾**

* الوعي أمر ضروري، وهو أول قراءتي فكل شيء لا شيء إذا لم يكن الوعي حليفه وأساسه، ولا بد من مرافقته لنا ونحن نتعبد الله تعالى في هذه الأماكن المقدسة التي تتم فيها شعائر الحج، إذ فيها ربط بين الماضي والحاضر، واستشعار لعمق هذه الشعائر التي نذهب إليها فهذه الأماكن وتلك الشعائر تحمل معاني عميقة ودلائل عظيمة، فعندما يذهب أحدنا إلى العقبة مثلاً لرمي الجمرات فعلينا أن نعي ونفهم أن هنا تمت بيعة العقبة التي كانت نواةً للدولة الإسلامية الأولى، وكانت بمثابة جمعية تأسيسية لإقامة الدولة المنشودة.

وقال النبي ﷺ لمن كانوا في هذا الموقع «اختاروا منكم اثني عشر نقيبًا». وهذا مبدأ للشورى والاختيار والاقتراع، وبه وُلِدَت أولى المؤسسات الدستورية في الدولة الإسلامية، وفي الغالب فإن الناس يهتمون ويتذكرون مكان أول برلمان، فالناس يذهبون إلى اليونان ويقولون: هنا كانت أكاديمية أفلاطون، وهنا كان سقراط يلتقي بتلاميذه، فهذا معنى المكان، فما بالك بالمكان «مكة» الذي انطلقت منه كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وما بالك بالمكان «المدينة» الذي أُسِّسَت به أول دولة إسلامية يرعاها رسول الله والمخلصون من أتباعه ومريديه ؟!

وكذلك عند الطواف ينبغي للحاج أن يتذكر أنه حول هذا البيت العتيق طاف الرسول ﷺ والأنبياء من قبله والأئمة والصالحون.

ونحن ننظر إلى مسجد الرسول ﷺ، فما أحسن أن نلتفت إلى «فقه المكان»، فعندما أقف مثلاً وأنظر إلى مثوى رسول الله ﷺ فهذه لحظة نورانية. وأحس أنه حي، وأنني أناجيه، وأنه يسمعني.. وحينما أنظر إلى الروضة الشريفة، وأتذكر حديث النبي ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة».

وأرى الناس يحرصون على الصلاة في هذه الروضة، ويعرفون أن الصلاة في هذا المكان لها أجرها العظيم وثوابها الكبير، فكم هو جميل ورائع أن يعرف الزائر كل هذا فيندفع برغبة وحرص حتى لا تفوته الصلاة ولا العبادة فيه! ولكنني في الحقيقة أشير إلى موضوع آخر نستوحيه من فقهنا لهذه الروضة، ففي هذه الروضة كانت مدرسة النبوة التي تخرّج فيها الجيل الفريد الذي غيَّر مجرى التاريخ والحضارة وأعرف أن الصحابي «ربعي بن عامر» عندما ذهب إلى «رستم» قائد الفرس وسأله رستم: ما الذي جاء بكم؟

قال: جئنا لنخرج مَن شاء الله مِن عبادِهِ من عبادةِ العباد إلى عبادةِ ربِّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

إنه كلام عظيم يدلّ على وعي أكبر، من علّمه هذا؟ لو لم يكن واحداً من رواد تلك المدرسة النبوية الكبيرة بسموّها ومعانيها...

ولا يفرحنا أن نعتني بالشكل بعيداً عن المضمون، وبالمظهر بعيداً عن الجوهر، بل يجب أن يزيدنا ذلك أسفاً وألماً وحزناً، وعلينا أن نتأمّل أن الإسلام أو القرآن عندما يطلب منا الصلاة لا يقول: أداء الصلاة، إنما يقول: «إقامة الصلاة».. فنحن نريد إقامة مناسك الحج والعمرة؛ فلا بد لنا أن لا نكتفي بمعرفة أحكام المناسك، بل علينا أن نعرف فقه المناسك، وفقه مكانها وزمانها.. ونستحضر

الماضي لنربطه بالحاضر ونستفيد منه في حياتنا ومستقبلنا، ونتزوّد من ذلك بالدروس والعبر العظيمة..

ونلاحظ أيضاً أن الله تبارك وتعالى عندما تحدث عن الزاد في الحج بيَّن أنه التقوى فقال: ﴿**وتزودا فإنَّ خيرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾، وعندما تحدث عن الذبائح قال: ﴿**لن ينالَ اللهَ لحومُهُا ولا دماؤُهَا ولكن ينالُهُ التَّقْوى منكم**﴾.

إذن علينا أن نعرف أن الله تعالى تعبّدنا بذلك لا لنؤديها فقط، وإنما لنستفيد دروساً منها وعبراً ومنافع لنا تقربنا إليه تعالى فلا نعصيه، ولا نتخلف عن طاعته ورضاه وإلا ﴿**فإن الله غني عن العالمين**﴾ آل عمران ٩٧.

ففي هذه الروضة كانت مدرسة النبوّة

إن من ينظر إلى أداء فريضة الحج يرى عجبًا.. والرائي لا يشاهد إلا ما يدعو إلى الدهشة فإذا رأيت ثم رأيت موكبًا من مواكب الله، وقافلة من قوافل الإيمان.. وجيشًا من جيوش الحق.. وجندًا من جنود اليقين.. هديرهم تكبير.. وهتافهم تسبيح.. ونداؤهم تلبية.. ودعاؤهم تهليل.. مشيهم عبادة.. وزحفهم صلاة.. وسفرهم هجرة إلى ربهم.. وغايتهم مغفرة ورضوان.. تراهم في حشدهم صورة متكاملة متناسقة في إطار نوراني على اختلاف أجناسهم.. وتباين اللغات وتغاير الأوطان..

اجتمعوا على كلمة الله تعالى.. والْتأموا في بيت الله.. والتحموا أمام الله في رحمة وعطف وحنان، شعار كل فرد منهم ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِين**﴾.. مظهرهم كأنهم بنيان مرصوص.. تركوا البلاد، والديار، والأهل، والأولاد.. والتجارة والأعمال.. لم تسُقهم قوة قاهرة.. ولم تجبرهم قوانين دنيوية، بل جاؤوا مندفعين بدافع من أعماقهم، منبثق من وجدانهم، نابع من فيض إيمانهم ومعين يقينهم.. قطعوا الفيافي والقفار.. واجتازوا الجبال والوديان.. وعبروا البحار

والأنهار.. وطاروا على متن الهواء.. قاصدين بيت الله الحرام.. يعيشون في رحابه.. وينعمون بقدسيته.. مستشرفين بضيافته.. متلمسين لرحمته.. مستهدفين المغفرة.. مستمطرين الرضوان، كما قال ربهم:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا..﴾

هو بيت العز والشرف، بيت المجد والكرم، بيت الرجاء والأمل.. واحة الضال.. وهداية التائه.. وملجأ القاصد.. وملاذ الخائف.. ومقام الطائف والعاكف.. من دخله كان آمنًا.. في جنباته الطهر والنقاء.. وعلى أبوابه البذل والعطاء.. وبين أركانه الجود والسخاء.. فالأجر مضاعف.. والجزاء موفور.. والذنب مغفور.. والسعي مشكور.. عند ربّ لا تُغلق رحابه.. ولا تُسدّ أبوابه.. لا يخيب سائلاً.. ولا يردّ طالبًا.. فهو الحليم الذي لا يعجل.. والكريم الذي لا يبخل.. وفي ميدان هذا البيت يتجلّى الدين في أروع صورة وأبدع مظهر.. جموع تطوف وتطوف.. وفئات تصعد وتنحدر بين الصفا والمروة.

فمن خلال الطواف نتعلم النظام، ونتدرب على التعاون وإنكار الذات، ونتلقى دروسًا عملية في الآداب، والمروءة، والحب، والعطف، والحنان، ونؤمن بأن التوجيه الديني أسمى من أيّ توجيه؛ فأيّ توجيه تكون له مثل هذه الفعالية؟ إن الجيوش تحتاج إلى ربط وإحكام، وضبط ودقة.. بعد تدريب متواصل.. وإشراف حازم.. إلا أننا نرى الحجيج ـ على كثرتهم واختلاف أجناسهم وتباين لغاتهم ـ يسيرون في اتجاه واحد.. وارتباط وتآزر، ووحدة وتكاتف.. ووسط التلبية الهادرة، والأصوات العالية.. إذا أذن المؤذن سمعوا الأذان.. ولبوا النداء.. فإذا بالجميع وقوف وكأن على رؤوسهم الطير.. لا تسمع حينئذ إلا همسًا.. ولا تحسّ إلا أنفاسًا، ولا ترى إلا أجسامًا منظومة، وأقدامًا مصفوفة.. إذا ركع إمامهم ركعوا، وإذا سجد سجدوا، وإذا قرأ أنصتوا، وإذا دعا أمّنوا.. إنها صورة من صور الجمال.. من الحسن والجلال.. ومشهد من مشاهد الكمال.. ولتأتِ الدنيا.. الدنيا

كلها لتطل على هذا المنظر البديع المتناسق.. وليشهد الوجود كل الوجود بأن الإسلام هو دين النظام.. ودين التضامن.. ودين الألفة.. ودين الحياة..

إنه الأذان!

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ الحج: ٢٧، ٢٨.

نعم يا إبراهيم أذِّن.. أذِّن.. أذِّن.. فالدنيا تسمعك.. والكون يصغي إليك.. والجود يلبي.. فنداؤك عبر الزمان ينشر على الأرض السلام.. ودعاؤك يبعث في الآفاق رونق الحياة.. وعجبت يا إبراهيم عندما قال لك ربك: أذّن يا إبراهيم.. فقلت وقتئذ: وما يبلغ صوتي؟!

فقال لك مولاك: يا إبراهيم عليك الأذان.. وعلينا البلاغ..

فناديت في الأجواء والآفاق: يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجّوا.. فلبى نداءك أهل الأرض وأهل السماء.. حتى النطف في أصلاب الرجال.. والأجنّة في أرحام الأمهات..

انه السعي!

ومن خلال السعي بين الصفا والمروة يستشعر الحجاج معنى التضحية والجهد.. هذا الجهد الذي قاسته السيدة هاجر من أجل شربة ماء تروي غلة طفل، رضيع أنهكه الجوع وأرهقه الظمأ.. امرأة وحيدة وسط الجبال الشاهقة وبطون الوديان السحيقة تهرول هنا وهناك.. في صعود وانحدار.. وحيرة واضطراب.. يمزق أحشاءها أنين ولد عليل.. جفّ ريقه.. وجمد لسانه اللاهث من شدة العطش.. فإذا ما اشتد الخطب.. وادلهمّ الأمر.. تجلت رحمة الله كالنور في الظلمة.. كالأمل الباسم وسط اليأس الحالك.. فتفجّر الماء سلسًا.. وانساب عذبًا

دافقًا.. إنه بئر زمزم.. زمزم الميمون.. زمزم المبارك.. النبع الطاهر.. الرحيق الحلو.. الدواء الشافي؛ ليعرف الناس أن الله تعالى لا ينسى مخلوقاته.. وأن الفرج بعد الضيق.. وأن مع العسر يسراً:

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾.

وانها عرفات!

وفي الموكب الإلهي.. وفي الركب الروحاني.. وفي مسيرة الإيمان.. يتوجه الحجاج بين الزحام المتكاثف.. وسط الجموع الصاخبة.. وخلال الكتل الزاحفة قاصدين عرفات.. متجرّدين من ملابسهم، اللهم إلا من إزار ورداء أبيضين يتساوى فيهما الغني ذو المال الوافر والجاه العريض.. بالفقير والمسكين ليتذكروا جميعًا ذلك الكفن الذي يلُفّهم عند وداعهم الأخير.. وكما قال عيسى عليه السلام: «يا أيها الناس لقد جئتم إلى الدنيا وأنتم عراة، وستخرجون منها وأنتم عراة».

إن هذا الزحام المائج يذكرهم كذلك بيوم الحشر وما فيه.. ﴿**يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾.. في عرفات تذوب الطبقية.. وتتلاشى التفرقة.. وتتجسّد المساواة الحقة.. المساواة الصادقة.. المساواة الخالية من كل تكلف أو خداع.. المساواة التي فقدت في العالم المتحضر.. وضاعت في دنيا المدنية الزائفة..

عند الصعود إلى عرفات.. يتسابق الحجاج ويتنافسون.. يتسابقون إلى ربهم.. ويتنافسون في كسب رضاه.. لله درّك يا عرفات.. فيك ينسى المؤمن الدنيا وما فيها من متاع.. ويهجر الحياة بما تحويه من ترف وملذات.. لا يهمّه لفح الهجير.. أو وهج الشمس.. ولا يمنعه شدة برد.. أو هطول مطر؛ لأنه خرج من نطاق البشرية إلى رحاب الروحانية؛ لأنه انسلخ من المادية إلى عالم المعنويات؛ لأنه تجرد من تربيته ليصعد إلى الملأ الأعلى.. الملائكة.. وينتظم في صفوف

الأبرار.. أي سحر فيك يا عرفات؟! إن البصر لا يقع عليك إلا ويرى عابدًا يتبتل.. ومذنبًا يتوجع.. ومؤمنًا يخشع.. ومصليًا يركع.. وعاصيًا ذا عين تدمع.. فكأني بك بحيرة قدسية تغسل الآثام.. وتمسح الخطايا.. وتمحو السيئات.. يومك يوم نور.. ويوم رحمة.. يوم بركة.. ويوم عطاء.. يوم يباهي به الله ملائكة السماء.. فتبتسم الآفاق.. وتشرق الأكوان.. ويعمّ الغفران.. فيندحر الشيطان..

كأني بالحجاج يسألون عرفات عن هذه الأمجاد التي اعتلت ذروته.. وتلك الكتائب الأولى التي عاشت على سطحه فترة من الزمن.. وكأني بالجبل الرحيب يقول: كانوا أبطالاً أفذاذًا جنودًا بواسل.. كانوا أنقياء أطهاراً.. صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعًا سجدًا، يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا، تعرفهم بسيماهم من أثر السجود.. فرضي الله عنهم ورضوا عنه، وذلك هو الفوز المبين..

كأني بالجبل الأشم يذكّرنا بالقائد الأعظم.. بالزعيم الأكبر.. بالمرشد الملهم.. محمد بن عبد الله ﷺ وهو يلقي أسمى خطاب في الوجود.. وأخلد حديث على صفحات الزمان.. وأظهر دستور عرفة التاريخ في حجة الوداع.. يرسم للبشرية طريق خلاصها.. وسبيل مجدها.. ودروب سعادتها.. وسكب في أذن الدنيا أصدق قانون.. فيه صلاح المجتمع.. وتقويم للخلق أجمعين.. صان فيه حقوق الناس وكرامة الإنسان:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾.

إنها الروضة المباركة!

زيارتها تختلف عن كل زيارة.. زيارة فيها السعادة والهناء.. زيارة فيها الصدق والوفاء.. زيارة فيها الفوز والفلاح؛ لأنها نزهة القلب.. لأنها فرحة الفؤاد.. لأنها فسحة الروح.. لأنها متعة الخاطر.. لأنها فرصة الحياة.. زيارة

فواحة بالعطر.. شذية العبير.. دافعة بالطهر.. وهَّاجة بالنور.. فياضة بالأمل الوضاء.

إنها زيارة محمد رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء.. سيد المرسلين.. أفضل العابدين.. درة الخاشعين.... إنه أعظم مخلوق في الوجود.. إنه تاج الشرف على رؤوس البشر.. إنه وشاح الحق على كتف الزمن..

وعبر هذه الزيارة الخاشعة تنهمر الدموع.. ويشتد النحيب.. وينتفض الوجدان.. فالكل أتى يدفعه شوق جارف وحنين عارم.. وشغف متحفز.. لزيارة رائد الإنسانية، ومعلّم البشرية، وباعث المحبة.. ليكحل العين برؤياه.. ويضمخ النفس بلقياه.. متنسماً ريح الجنة.. وأريج الفردوس.. في صمت وخشوع.. ورهبة ورغبة.. وروعة وجلال.. فهنا مهابط الوحي.. ومنابع الطهر.. ومنزل الرحمة.. وشاطئ الأمان.. ومشرق الحضارة.. ومحراب القداسة.. ومن خلال تلك الرحاب.. يتفجر الإيمان.. وينطلق اليقين.. وينبثق الدين.. وتذوب النفس في كؤوس الصفاء.. فيبدو الحاج وقتئذ مجلوًّا بنور الله سبحانه.. وضَّاء بشعاع التقوى.. ومزودًا بخير زاد، مغتسلاً من الخطايا والآثام.. متوّجًا بتاج العز والكرامة.. عليه فيض من رضى.. وغمرة من حنان.. ولمسة من رحمة.. وهكذا يعود الحجاج من رحلتهم الميمونة، ودراستهم المباركة، إلى بلادهم في تألق وإشراق، ونقاء وانطلاق، يمنحون الحياة الخير والرجاء، وينشرون البر والسلام.

انها قرائح رائعة !

وأسوق هنا شيئاً من أمثلة الخواطر التي تجيش بها قرائح الشعراء حول فريضة الحج موقعاً وأهدافاً.. إنها خواطر مبعثها هذا الهوى المستكن في أفئدتهم، إجابة لأذان أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وهي خواطر مهما كانت لن تبلغ من وصف البحر الزاخر إلا ما تبلغه من

وصف قطرة ماء تنفصل من الموج الخضم المتلاطم، ومن ثَم يبقى الحج دائمًا مجالاً يتسع للمزيد من القول أمام هتاف الشعراء، حين يرون بأعينهم أمواج الحجيج في كل عام، تتجه ـ في بعث ونشور ـ قاصدة بيت الله الحرام، تؤدي ما افترض عليها، وتبغي ميلادًا جديدًا في حياتها، ميلادًا بعد ميلادها الأول، ميلادًا يعود فيه الذاهبون من ذنوبهم كيوم ولدتهم أمهاتهم.

وأنظر إلى الكعبة المشرفة، يملأ البصر منها نور العين وتملأ البصيرة منها أنوار الروح وأقرأ:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ*فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. آل عمران: ٩٦-٩٧.

لقد دار الزمان واستدار، وبلغت الروح دار القرار، قد أسكنتها إرادة الله بيته الحرام، وأمكنتها يد القدرة من رحلة العمر وتمام الأمر، فقد أجاب نداء أبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام حين أذّن في العالمين بالحج المبرور إلى البيت المعمور: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ الحج: ٢٧.

إنها الروح!

التي تهتف:

خذوني خذوني الى المسجد	**خذوني الى الحجر الأسود**
خذوني إلى زمزم علّها	**تبرد من جوفي الموقد**
خذوني لأستار بيت الاله	**أشد به في ابتهال يدي**
دعوني أحط على بابه	**ثقال الدموع واستنفد**
فإني أحيا على لطفه	**وأن ياتني الموت استشهد**

انها الروح !

ها هي الروح قد حملت البدن إلى تحية هـذا البـيت، حـباً وإقـبالاً، وتحـية وامتثالاً، فطاف البدن شفاءاً ووفاءاً وقرباً ورجاءاً:

طف بـي بـمكة إنـي هـدني تـعبي واتـرك عـناني فـإني هـا هـنا اربـي
ودع فـؤادي يـمرح فـي مـرابـعها فـفي مـرابـعها يـغدو فـؤادي حـياً

فإن طوافي وسعي واحرامي.. ليمتد إلى مكة بأسرها.. فمكة كلها حرم؛

هـنا أمـرغ خـدي صـبوة وجـوى فتهتف الحور بشرى خـدك التـرب
فـإن رأيت دمـوعي انـبتت حـجراً فتلك مني دمـوع الفـرحـة العـجب

ولماذا كل هذا الحب العاجب والشوق اللاجب. إنه وحسب تصديقاً بكتابك يا رب، ووفاءاً بعهدك، واتباعاً لسنة نبيكﷺ:

هـنا بـمكة أي الله قـد نـزلت هـنا تـربى رسـول الله خـير نـبي
هـنا الصـحابة عـاشوا يـصنعون لنـا مـجداً فـريداً عـلى الأيـام لم يشب

وزيارة بيت الله الحرام لا يهدأ لها أوار ولا يقرّ لها قـرار، إنهـا هـزة الشـوق ولذعة التوق، وعند أعقاب هذا البيت أحيا من جديد:

كـم هـزني الشـوق يـا خـير الديـار وكم عانيت بعدك وجداً دائم السبب
ألا إليك أرى الأشـواق تـقعد بـي وعـند ذكـرك أشـواقـي تـحلق بـي
وعـند ذكـرك أنسـى أنـني بشـر وكالملاك أحـيا فـي المـدى الرحب
فـتبدعين كـياني مـن تـقى وهـدى فـلا أحس بـما ألقـاه مـن وصب
مـا غـير زورة بـيت الله تـرجـع لي شباب روحي إذا امتدت يـد النـوب
ربـي حـنانك فـاكـتبها وخـذ بـيدي كي يهتف القلب يا فوزي ويا طـربي

اللهم آمين، اللهم اكتبها مبرورة مأجورة لكل مشتاق، واطو اللهم له الديار والأسفار والأعماق، يا رب يا واهب يا فتاح يا رزاق.

إنها مكة أم القرى، الأرض التي حرمها الله فأصبحت للناس حرما آمنا ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم...﴾ العنكبوت: ٦٧.

موطن الأمن والحمى والجوار ... درّة الأرض منبع الأنوار
حرم الله أرضها وحباها ... من قديم بباهر الأسرار
مكة الطهر والسلام تسامى ... قدرها فوق سائر الأمصار
رحمة الله ظللتها وفيها ... من رضا الله أعذب الأنهار
كل من جاء للرحاب يلبي ... دامع القلب خشية من نار
يملأ الأمن قلبه وتتلقى ... روحه رحمة من الغفار

وليس بكثير على أم القرى أن تكون عروس المدائن وقِبْلَة العابدين، فهي البلد الذي اختاره الله لبيته الحرام واختصه بالتوجيه إليه.

ترنيمة في بطحاء مكة:

وبـــها الأركــان والبـيت الذي شـــد بــالإيمان أُزر المســلمين
اســـعد الله بــــها مــن اســعدا جــاور الركــن وحـيا المسـجدا
قــف بـهذا السـفح قـرب العـلم وانــهل الطـيب شـذا مـن زمـزم
وطــف البـيت طـواف المـحرم واعـــــتمر لله رب العـــالمين
مــن ذراهــا نـزل الروح الأمـين فــي ثـراهـا وضـع الحـق المـبين

إنها المنهل والمورد، وهي الغاية والمقصد، فهي منزل الوحي ودار الإسلام:

شـــــريعة الله رفت فـــي مــــأذنها وفـــي الحـــنايا دعــاء ســبح الله
تروي العطاش عـلى الأزمـان زمـزمها كــما روى لهــيف الخــطو مسـعاها
مـن كـان فـي كـنف البـطحاء مسكـنه كـانت سجاياه بـعضاً مـن سـجاياها
ومـــن تكـــن كـــعبة الإســـلام قـــبلته فـــإنما الخــلد والرضــوان عــقباها

وتتواصل الخيرات والبركات بين مهد النبوة ومهبط الوحي:

بـــوركت يــا أم القــرى مــن بــقعة خـــلعت عـــليها البــينات إهــابها
زف الخـليل إليك إسـماعيل فـالتقت هـــــضابك بــــالجلال وبــــالبها
وأتـــى خـــتام المــرسلين مـبشراً بـــالنور يــجلي للــنهى مــا رابــها
وغـــدوت بــالبيت العــتيق مـنارة أبـــداً تـــردد هـــديها وثــوابــها
وعــدت مــروجاً كــالرياض وجــنة رضـــوان فـــتحت للــحنيفة بــابها

يا أيها الناس! إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا، فما يدري أحـدكم مـا يعرض له فقد يضيع المال، وتصل الراحلة، وتكون الحاجة، فهيا نردد:

إلى عـــرفات الله يــا خـير زائـر عـــليك سـلام الله فــي عـرفات
فــفي الكـعبة الغـراء ركـن مـرحب بكـــعبة قـــصاد وركـــن عــفاة

عـلى كـل أفـق بـالحجاز مـلائك تـزف تـحايا الله والبـركات
لدى البـاب جـبريل الأمـين بـراحـة رسـائل رحـمانية النـفحات
ومـا سكب المـيزان مـاء وإنـما أفـاض عـليك الأجـر والرحـمات
وزمـزم تـجري بـين عـينيك أعـينا مـن الكـوثر المـعسول مـنفجرات

فالكعبة الغراء منتهى القصاد، وراية العباد، وإليها تـطير الأرواح فـالتوجه إليها عبادة، والنظر إليها عبادة، وهذه مناجاة الكعبة الغراء:

بـنور عـلى أم القـرى وبـطيب غسـلت فـؤادي مـن أسـى ولهـيب
لثـمت الثـرى سـعياً وكـحلت مـقلتي بـحب كـأسرار السـماء مـهيب
وأمسكت قـلبي لا يـطير إلى مـنى بـأعبائه مـن لهـفة وحـبيب
هنا الكعبة الزهـراء والوحـي والشـذى هـنا النـور فـافني فـي هـواه وذوبـي
ويـا مـهجتي بـين الحـطيم وزمـزم تـركت دمـوعي شـافعاً لذنـوبي
وفـي الكـعبة الزهـراء زيـنت لوعـتي وعـطر أبـواب السـماء نـحيبي

الحجاج والعمار وفد الله ـ عز وجل ـ، وهم مضمونون عليه، إن قبضهم أن يدخلهم الجنة وإن ردهم، ردّهم بأجر وغنيمة؛ يحمل قلبه، وقلوبنا معه إلى البيت العتيق فيقول:

فـلبى الله مـبتهلاً إليـه إلى البـيت العـتيق حـملت قـلبي
عـلى الخـدين فـي صـمكت لديـه وطـاف بـركنه والدمـع يـجري
وبـين المـروتين سـعيت سـعياً كـما يسـعى الحـمام بـمروتيه
له سـبحانه نـدعو ونـرجـو هـداية أُمَّـةٍ وَفَـدَتْ عـليه
ومـا فـي الأرض مـن نـعم تـوالت عـلى مـر الزمـان فـمن يـديه

فله وحده سبحانه الشكر والضراعة والذكر، لبيك اللـهم لبـيك.. لبـيك لا

شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبّيك.

لبـــيك يــا رب الحــرم.. لبيك يا رب الجود والكرم..
لبـــــيك يـــا رب الورى لبـــــــيك أنت المـــنعم
هـــذا نــداؤك قــد ســرى والكـــــل بــاسمك مــحرم
ولكـــم تــخر لك الجــباه وأنـــا بـــعفوك أطـــمع

وسيظل الطمع في رحمة الله، وغسل الذنوب على أبواب التوبة وأعتاب الرجاء:

دعـــونا إلى الحــج حــتى ســعى له كـــل مـــن رامـــه مــطمعاً
فكـــــــنا له خــــير داعٍ دعـــا بـــعزم مـــتين وديـــن مكـــين
رفــعنا عــلى البــيت أســمى لواء وطـــاف بـــمكة مـــنه الدعـــاء
ســرى فـي البـطاح شـجي الرجـاء مـــغنى بـــه كــل جــاد أمــين

وهذه نبعة ثرة من نبعات الحياة، وخفقة من خفقات القلب النابض، إنها مناجاة حيث باب الكريم وحيث فضله وكرمه وعفوه...

كـــعبة الحســـن تــبدت ســحراً فـــما أحـــلاها بـــوقت الســحرا
تـــغمر الأرواح مـــن نــفحاتها تـــتملّى مـــن شـــذاهـــا العــطرا
كـــلما طــفت بــها فــي لهــف هــزني الشــوق للــثم الحــجرا
فـــــرسول الله قـــد قـــبَّله كـــيف لا أهـــنا بــلثم الحــجرا

فهي الأرض التي بارك الله ثراها وسماها، لا يفزع طيرها،.. ولا يعضد شجرها.. وهي سقيا زمزم.. طعام طعم وشفاء سقم.. فهنيئًا لأهلها حيث يناجيهم:

يا أهل مكة ماء زمزم عـندكم ... يشـفي مـن الالام والأسـقام
وطعام طـعم لا مـراء بـفضله ... وشفاء سقم في مـدى الأيـام

وعلى طريق الحب في الله .. وعلى خطى رسول الله يتدفق نهر الإيمان بين مكة والمدينة ..

يـا أهـل مكـة حـيا الله مـعدنكم ... أنـتم كـرام وفـيكم يـزهر الأمـل
مـا فكـر القـلب يـوماً فـي سـلوكم ... وكيف أسلو ونار الشـوق تشـتعل؟!
ولي بـمكة إخـوان عـرفتهم ... وقـلبهم بـرسول الله مـتصل
إن تـحتفل أمـة فـي ذكـر قـائدها ... فـإننا بـرسول الله نـحتفل

والحج شعيرة الشعائر وحياة الأبدان والضمائر، ورحلة الولاء والبراء:

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَـرِيءٌ مِّـنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾.

وتتجلى عطاءات الجواد الذي لا يعضل، والكريم الذي لا يبخل، وهـبات الحـليم الذي لا يـعجل، عـلى كـل مـن طـاف ولبّى ،و وقـف بسـاحة العـرض بعرفات الله .. حيث يشهد الله ملائكته أنه قد غفر لأهل عرفات جميعًا ..

في ائتلاف النور والجلال في عـرفات ... وهـدير الدعـاء مـلىء الحـياة
وحشـود الحـجيج مـوج تـموج ... قـد تـهادى فـي مـوكب الرحـمات
مـلؤها النـور والجـلال وفـيض ... مـن فـيوض الإيـمان والنـفحات
وامـتداد الأكـف لله تـدعو ... والضـراعـات مـلىء كـل الجـهات
فـيباهي بـهم إله البـرايـا ... كـل مَـن فـي السـماء مـن كـائنات
هـم لمـبادئ أتـوني اليـوم شـعثاً ... لا يـريدون غـير وجـهي وذاتـي
فـاشهدوا أنـني غـفرت ذنـوباً ... لعـبادٍ يـدعون فـي عـرفات

ونختم هذا الفصل بقصيدة أحمد شوقي حين حج صديقه محجوب البيت الحرام، وفي بدايتها يتوجه إلى هذا الصديق بالحديث ذاكرًا له ذلك المكان، الذي له الوقع الحسن على أذن كل حاجّ يقصد بيت الله الحرام وهو الحجاز:

محجوب إن جئت الحج الحجا
ز وفي جوانحك الهوى له
شوقاً وحباً بالرسول واله ازكى سلاله
فلمحت نضرة بانه و شممت كالريحان ضاله

وهنا يشير الشاعر إلى الهوى، والشوق، والحب الذي يملأ جوانح كل متجه إلى حج بيت الله الحرام، وإلى زيارة النبي ﷺ، تلك المشاعر القلبية التي تجعل العيون ترى كل شي حولها بهيجًا ناضرًا ذا عبق طيب ورائحة زكية.

ثم يتابع الشاعر المسير مع هذا الحاج متنقلاً معه إلى حيث الأماكن المقدسة فيقول:

وعلى العتيق مشيت تنـ ظر فيه دمعك وانهماله
ومضى السرى بك حيث كان الروح يسري والرسالة
وبلغت بيتًا بالحجا ز يبارك الباري حياله
الله فيه جلا الحرام لخلقه وجلا حلاله
فهناك طبّ الروح طبّ العالمين من الجهالة

إنه يتنقل معه إلى البيت العتيق، وإلى كل مكان سرى فيه الروح الأمين بالرسالة القرآنية التي أحلّت الحلال، وحرّمت الحرام في جلاء ووضوح لا مجال فيه لشك أو ريب، وهنا يأتي التذكر بالنفع والثمرة المنتظرة بعد أداء الفريضة، إنها الثمرة التي تشفى بها الأرواح من مرض، وتهدى بها العقول من بعد ضلالة، إنه

الطبّ الناجع في الشفاء؛ لأنه طبّ رب العالمين، الذي خلق فسوى، والذي قدَّر فهدى.

ويتابع الشاعر التذكير بكل شي يجده الحاج من كل ما يتصل بماضيه مكانًا وثقافة وذكريات غالية:

وهناك أطلال الفصاحة والبلاغة والنبالة	
وهناك أزكى مسجد أزكى البرية قد مشى له	
وهناك عذري الهوى وحديث (قيس) والغزالة	
وهناك مجرى الخيل يجري في أعنّتها خياله	
وهناك من جمع السما حة والرجاحة والبسالة	
وهناك خيّمت النهى والعلم قد ألقى رحاله	
وهناك سرح حضارة الله فيأنا ظلاله	

إنها دعوة إلى استحضار الماضي بكل أمجاده ومفاخره؛ إذ لا انفصال للحاضر عن الماضي في تاريخ كل أمة تعتز بنفسها وتريد أن يكون لها شأن بين الأمم.

إن هذا الماضي هو الذي يوقد عزائم الحاضر؛ لكي تشعر في داخلها أنها جديرة حقًّا بأن تصنع شيئًا، من هنا كانت هذه الإشارة المكررة في أبيات الشاعر (وهناك) تلك الإشارة التي تعني التذكير، والتعظيم، والإعلاء، والإكبار لكل ما هو مرصود مذخور في تاريخ هذه الأمة.

إن كل ذلك يمثل حضارة أنعم الله تعالى بها عليها، وجعلها تتفيأ ظلالها، ومن ثَم فهي نعمة يجب أن تشكر، وأول دلائل الشكر أن يحافظ عليها، وحفظها بإحيائها، والتمسك بها، والعمل على منوالها في تجديد موصول، لا تنفصم فيه العرى، ولا تنقطع بين أطرافه الأسباب.

تهفو قلوب المؤمنين إلى المسجد الحرام، ولا يهدأ هذا الحب مهما تغير الزمان

وتراخت الأيام؛ ذلك لأنهم يرون فيه بقية من مجد دينهم السالف امتزج بروحهم امتزاج النور بالهواء، لا يتنسى لمحلل أن يفصم ما بينهما، ولا لمعترك الحياة أن تمحو أثرهما.

يتذكر المسلمون ما غبر من تاريخ هذه البلاد، وتمرّ بخيالاتهم أطياف مما عمل سكانها، ويستنبطون ما في الأرض ويستظهرون ما على ظهرها بها فيشرفون من حال إلى حال، ويجدون أن دهرهم هدم منهم العناصر الحية، فتناثرت رفاهيتهم وذاقوا بأسهم، فكأنهم هم الموتى، وكأن أسلافهم أضفت عليهم الحياة أثوابها، فتلك آياتهم متجسمة تفرغ حياتها وتشرق نورانيتها على هذه المشاعر الكريمة، وتسطر كلماتها في الأرض إلى نهاية الدنيا؛ ليقرأ فيها معاني الإخلاص والوفاء والرحمة، وناهيك برجال استلهموا الفطنة فما كذبتهم، وعالجوا الهموم فما صرعتهم، وقطعوا الشك يتلجلج في الصدور بقوة يقينهم، ومحوا الخوف يذهل النفوس بصرامة إقدامهم، فإذا دين الله يزيد أتباعه ولا يقلّون، وينفذ شعاعه في رفق وتؤدة حتى يستفيض على الجزيرة وما حواليها جميعًا في مدى لا يتجاوز العشرين عامًا، وهي في عمر الدهر لم تكن شيئًا مذكوراً، فكانت هذه المعجزة الإنسانية الكبرى التي تفيأ ظلالها كلّ لاجئ والمنارة الوضاءة لمعاني الإخاء والمساواة إذا رغبت الناس في نعمى الحياة، واهتدوا إلى دين الله.

أفكان من الغريب أن يشرع الله من فضله فريضة الحج ويجعلها أحد أركان الدين الخمسة؟! ليصل المسلمون حاضرهم بماضيهم، ويغذوا مشاعرهم بذكريات أسلافهم، ويترسموا في دنياهم خطى رجالاتهم؛ ويعلموا أن المسلم أخو المسلم لا يفرق بين الأخوين اختلاف مكان أو تفاوت لسان أو ألوان، وهذه بقعة الحج تجمع بينهما على بعد المكان، وتغرس الود في نفسيهما على تقوى من الله ورضوان.

إذا أذن مؤذن الحج رأيت صدى دعوته يتجلجل في جنبات العالم الإسلامي،

ويهز المشاعر هزّاً إلى أرض الحجاز، وإلى الكعبة قبلة المسلمين، وإلى تلك المناسك التي تفصح عن سرّها، وتبين عن شريف حكمها، فإذا وقف الحجيج في عرفات، هاتفين لبيك لبيك ـ وقد حسروا الرءوس واطّرحوا زينة هذه الحياة الدنيا ـ فكأنهم في يوم المحشر وقد زاغت الأبصار فلن ترى إلا خاشعًا يتبتل، وباكيًا يتوسل، ومذنبًا يتوب، ونفسًا تذوب، وتشعر آنئذ أن الروح الأمين والملائكة المقربين تطل على هذه الجموع من عل، معجبة بتقواها، مشاركة في دعواها، مقرة بقصور علمها عن مغزى الإرادة الصمدانية:

﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾.

يؤلف بين المسلمين ويجمع كلمتهم، ويلفتهم إلى أن القوة في اتحاد الكلمة، وطرح تلك الزخارف الفاتنة والرجوع إلى طهارة الدين، فإذا كانوا يريدون الخير فهذا طريقه مُعبّد وما عليهم لو خرج أغنياؤهم ومتوسطوهم عن قليل من المال في سبيل هذه الفريضة وشهود الجماعة، فيؤدون واجبًا لله في إقامة أحد الأركان، وواجب الأخوة الإسلامية في توثيق روابطها، وواجب الإنسانية في برّ جماعات انقطعوا لجيرة الله، وحُرموا كثيرًا من وسائل الحياة، ثم شاهدوا آثارًا حافلة بشتى الذكريات تحدث عمن غبر حديثًا عجبًا يهدي إلى الرشد، ويحفز إلى كل فضيلة وكمال، وما تقهقر المسلمون إلا حين تراخت العرى بين ماضيهم وحاضرهم، فزلزلتهم أطماع الدول، وتنكّرت لهم مباسم الكون وخشنت مناعم الزمان، وضرب الدهر ضربته في ذلك البنيان المرصوص حتى كاد اليأس يعصر عود الأمل، ويصبح أبناء الإسلام في ليل من الشك مظلم. نعم في تلك البقاع الطاهرة تتحلى النفس بالقوة، وتتجلى الشمائل المرجوة، وتحسس إلى النفس معاني الشرف والإباء والمفاخرة، تدفع بها دفعًا لا شعوريًّا إلى الاستهانة بالخطوب.

إن هذه المناسك التي يؤديها الحاج لتكشف عن نواحي العظمة في هذا الدين،

وتحث على السموّ بالروح إلى عليين، فهذا الإحرام والطواف حول الكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفات، ورمي الجمار، عند العقبة، وتقديم الهدي، واستلام الحجر الأسود، والإهلال بالتلبية..

كل هذا يفسح للمتدبر العاقل عن مغاز سامية لصلاح المعاش والمعاد، وتلك البقاع الحجازية تهيب كل بقعة منها بالمسلم أن يكون رجلاً قوي الإرادة، لا يثنيه في سبيل الحق والكرامة خطب إن ذل، ولا مغر وإن جل، هذا جبل ثور وغاره المبارك، مهبط جبريل على خاتم النبيين، وتلك دار الأرقم شعار الوفاء والتضحية، وتلك الكعبة بناء إبراهيم، وعرفات مجمع الحسنات، يرى المؤمن في كل منها حالاً تنطلق بمجد الدين والأجداد، وهادياً يرشد الأبناء والأحفاد !!

الرمزية:

ومن الجوانب الخاصة بفضيلة الحج أنه يتعلق بمشروع إلهي عظيم، بدأ بإبراهيم عليه السلام واكتمل بمحمدﷺ. ومناسك الحج المختلفة هي مراحل هذا المشروع الإلهي التي يعيدها الحاج بصورة رمزية:

فالإنسان الحاج يغادر موطنه متجهًا إلى الحجاز كما كان إبراهيم عليه السلام قد خرج من العراق متجهًا إلى الحجاز.

ويتخلى الحاج عن ملابسه العادية ويلفّ حول جسده رداءين، وهذا اللباس ـ الذي هو الإحرام ـ مماثل للباس البسيط الذي كان إبراهيم وإسماعيل يرتديانه.

وعندما يصل الحاج مكة ويطوف حول الكعبة فهو يقلد الطواف الذي قام به إبراهيم وإسماعيل توثيقًا للعهد الإلهي.

وعندما يسعى الحاج سبع مرات بين الصفا والمروة فهو يقلّد سعي هاجر؛ بحثًا عن الماء في الصحراء.

وعندما يذهب الحاج إلى منى وينحر قربانه فهو يعيد ـ بصورة رمزية ـ ما

فعله إبراهيم حين استعد لنحر ابنه، ثم نحر كبشًا بأمر ربه.

وعندما يتوجه الحاج إلى الجمرات فيرمي الشيطان بالجمار فهو يكرر عمل إسماعيل عليه السلام الذي رمى الشيطان بالجمرات عندما حاول أن يغويه.

ثم يجتمع كل الحجاج بميدان عرفات، وهنا يجتمع كل الحجاج في ميدان واحد مفتوح، فيعاهدون ربهم عهدًا جماعيًا أنهم سيظلون ينفذّون في حياتهم القادمة ما تعلموه خلال الحج، وأنهم سيعيشون مقلّدين حياة أولئك الأبرار الذين يكون الحج تذكارًا لهم.

وقد وصف القرآن مناسك الحج بالشعائر، أي العلامات.. وهي كلها الوقائع التي وقعت لإبراهيم وأسرته خلال تنفيذ الخطة الإلهية التي أرادها الله تعالى من إبراهيم عليه السلام.

ومن الجوانب الخاصّة بفضيلة الحجّ أنّه يتعلّق بمشروع إلهي عظيم بدأ بإبراهيم عليه السلام واكتمل بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله

ويقلد الحاج هذه الوقائع بصورة رمزية ويعاهد ربه بأنه ـ هو الآخر ـ سيصبح جزءاً من هذا التاريخ الإيماني الذي ترتضيه السماء.

فالحاج يعاهد ربه بأنه لو طرأت الحاجة فإنه سوف يحطم حياته القائمة ليتقدم نحو الحق، وأنه سيرضى بترك الراحة والرفاهية واختيار القناعة والبساطة، وأنه سيسعى من أجل الله، وأنه سيرمي تقاليد الشيطان بالجمار، وأنه سيدور حيثما دار به دين الله، وسيستسلم لكل ما يقتضيه هذا الدين.

فالحاج يقول لله تعالى بلسان عمله وحاله: إنه لو اقتضت الضرورة مرة أخرى لأجل الدين فإنه مستعد لكي يذهب إلى منتهى ما يمكن أن يذهب إليه أحد من البشر، وهو أن «يذبح» ابنه ابتغاء مرضاة الله.

النسل الجديد !

وكانت رحلة إبراهيم عليه السلام من العراق إلى مكة والوقائع التي وقعت هنا بعد مجيئه خطة إلهية عظيمة الشأن بدأ تنفيذها قبل نحو ٢٥٠٠ سنة، وخلاصة هذه الخطة أن الشرك كان قد غلب على الفكر البشري منذ نحو خمسة آلاف سنة؛ لدرجة أن شعبة ما من شعب الحياة لم تكن تخلو من أثر الشرك، واستمر هذا الحال جيلاً بعد جيل، وكانت النتيجة أن قام تسلسل فكري للشرك عبر الأجيال المتعاقبة. وكل مولود في تلك الأزمنة كان يرث عقلية الشرك وينشأ عليها، وهذا هو السبب في أن نداء الأنبياء بالتوحيد لم يكن يؤثر فيهم كثيراً.

وهنا وضع الله تعالى خطة لكي ينشأ نسل جديد من البشر بعيدًا عن مؤثرات بيئة الشرك؛ لكي يفكر بعيدًا عن تسلسل الشرك الفكري.. وكان أنسب شي لهذا مكانًا غير مأهول، وبعيد عن المستوطنات البشرية. ولذلك اختيرت لهذا الغرض بلاد العرب الصحراوية المجدبة التي كانت منقطعة عن العالم المأهول حينذاك.

والإنسان الأول المطلوب لإنشاء نسل جديد في هذه المنطقة الصحراوية الجدباء هو من يكون مستعدًا ليسكن فيها، مدركًا أنه قد يدفع حياته ثمن العيش بها، وهنا رأى إبراهيم رؤيا بأنه «ينحر» ابنه.. وكان المقصود من هذا هو التأكد مما إذا كان إبراهيم مستعدًا لكي ينضم إلى الخطة الإلهية بحيث يذهب بولده ويسكنه هناك حيث لا شي غير الجبال المجدبة وصحاري الرمال.. فكان السكن في الحجاز حينئذ مرادفًا للسكن في وادي الموت.

وقد ظلّ الحجاز غير مسكون في الأزمنة الغابرة لفقدانه الماء والخضرة. وكان الحجاز القديم خاليًا من آثار حضارة الشرك؛ لأنه كان خاليًا من وسائل الحياة. وهذه الخاصية التي أخلت الحجاز القديم من المشركين هي التي أهّلته لكي يُعَدّ به نسل جديد من الموحّدين، وكان وضع إبراهيم المدية على حلقوم ابنه

إسماعيل إعلانًا بأنه مستعد لهذه التضحية كل الاستعداد؛ ولذلك اختير إبراهيم وإسماعيل لهذه الخطة الإلهية، وبدأ العمل لإعداد نسل جديد من البشر بإسكان إسماعيل وأمه في منطقة نائية من الحجاز القديم.

وكان إبراهيم عليه السلام قد دعا الله بأن يُظهر رسولاً من نسل إسماعيل..: ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم**﴾ البقرة: ١٢٩.

وقد ولد رسول الله ﷺ نتيجة هذا الدعاء. ولكن، كما هو معلوم، هناك فاصل ٢٥٠٠ سنة بين هذا الدعاء وتحققه، والسبب في هذا التأخير هو أن نسلاً جديدًا كان يُعدّ خلال هذه المدة ليفكّر بعيدًا عن تسلسل الشرك الفكري، ويكون مستعدًا ومؤهلاً نتيجة التربية الصحراوية لكي يقف إلى جانب الرسول ويساعده على تكميل رسالته؛ ولهذا السبب سميت هذه المجموعة بـ﴿**خير أمة**﴾، وهي أغرب أمة في التاريخ، فصحيح أن جزءاً منها عادى الرسول في بداية الأمر، إلا أنها وقفت إلى جانبه بكل قوتها عندما فهمت الأمر وأدركت الحقيقة.

وهذا النسل الذي نشأ بمكة قد تداخلته ـ فيما بعد مؤثرات ـ الشرك من جرّاء تأثير البيئة المحيطة، ولكنه كان نسلاً محفوظًا نقيًا في حقيقة الأمر، وكان الناس على الفطرة الصحيحة باستثناء بعض الأفراد قليلي الفهم، وقد وقف أفراد من هذا النسل موقف المعاداة من الرسول في بداية الأمر، إلا أن معاداتهم كانت تعود إلى الجهل، وعندما أدركوا أن محمدًا رسول حقًا وأن دينه صادق، تحولت عداوتهم إلى قبول وتحولوا إلى أصحاب له بكل ما لديهم من همة ونشاط.

وكانت الصفة المميزة للنسل ـ الذي أعده إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه رمزيًا ـ هي أنه كان ينظر إلى الأشياء نظرة حرة مستقلة، وكان بإمكانه أن يعترف بمثل هذه الحقيقة، فكان يتمتع بكامل الكفاية للاعتراف بالحقيقة.

وفيه فئات ثلاث:

فئة آمنت بالحق فور اطلاعها عليه.

والفئة الثانية أنكرت النبوة في بداية الأمر إلا أنها بادرت إلى الاعتراف بها عندما فهمت الحقيقة.

أما الفئة الثالثة فلم تعترف للحفاظ على رئاستها ومراكزها...

١ ـ كان خالد بن سعيد بن العاص من أوائل الذين آمنوا برسول الله ﷺ، وجاء خالد إلى رسول الله ذات يوم وقال: «يا محمد إلام تدعو؟ قال: أدعو إلى الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ولا يدري من عبده ممن لم يعبده. قال خالد: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله»؛ فسُرَّ رسول الله بإسلامه، وتغيب خالد، وعلم أبوه بإسلامه، فأرسل في طلبه من بقي من ولده ممن لم يسلم ورافعًا مولاه، فوجدوه فأتوا به إلى أبيه أبي أحيحة، فأنّبه وبكّته وضربه بمقرعة في يده حتى كسرها على رأسه ثم قال: اتبعتَ محمدًا وأنت ترى خلافه قومه وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضى من آبائهم؟ فقال خالد: «قد صدق والله واتبعته»[1].

وكان خالد يقول بعبارة أخرى: إنه عندما يقول محمد القول الحق، فكيف يمكنه ألا يعترف برسالته ويؤمن بها؟!

٢ ـ ويتعلق المثال الآخر بسهيل بن عمرو الذي كان مندوب أعداء الإسلام عند صلح الحديبية.. وعندما بدؤا في كتابة المعاهدة بعد مفاوضات طويلة قال رسول الله ﷺ، وهو يملي نص المعاهدة: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فاعترض سهيل بشدة على كلمة «رسول الله»، وقال: «والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك».

ويخبرنا التاريخ أن سهيل بن عمرو كان صادقًا كل الصدق في كلماته هذه

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤: ٩٤ طبعة دار بيروت، ١٣٩٨، ١٩٧٨.

وكان يعارض الإسلام بسبب جهله ليس إلا، أما حينما أدرك سهيل ـ فيما بعد ـ أن الرسول ﷺ نبي صادق، آمن به وسخّر حياته كلها لأجل الإسلام، وقد وقف سهيل موقف صدق يذكره التاريخ حين همت قريش بالردة في أعقاب وفاة رسول الله ﷺ.

والنسل الإنساني الذي أنشأه إبراهيم عليه السلام بامتثاله «ذبح ولده»، تكونت منه ﴿خير أمة﴾ أي من صفوة هذا النسل والتي قبلت بدين التوحيد قبولاً كاملاً، وقضت على عصر الشرك بتضحيات لا مثيل لها، وفجّرت عصر التوحيد..

واستغرق تنفيذ هذه الخطة ألفين وخمسمائة سنة، ابتداءاً بإبراهيم عليه السلام وانتهاءاً بمحمد ﷺ، وكان مركز هذه الخطة تلك المنطقة من بلاد العرب التي تسمّى بالحجاز ومركزها مكة.

﴿... يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ البقرة: ١٢٩.

العهد والعمل:

والحج إعادة رمزية لذلك التاريخ، والمسلمون يعاهدون ربهم مرة أخرى عبر شعائر الحج بأنهم راغبون في الاشتراك في هذه الخطة الإلهية.. فهم يتقاطرون إلى أرض إبراهيم وإسماعيل رافعين شعار «لبيك اللهم لبيك»، ويقلدون ـ بصورة رمزية خلال أيام معلومات ـ ما وقع عليهما في حقيقة الأمر.

والحقيقة هي أن عمل الحاج لا ينتهي بعد الفراغ من شعائر الحج، بل يبدأ عمله الحقيقي بعد الانتهاء منها، فعودته من الحج بداية لرحلة أكثر أهمية..

ويردد الحاج مرة بعد أخرى خلال شعائر الحج كلمات: «لبيك اللهم لبيك».. فما هي هذه الكلمات؟ إنها كلمات معاهدة بين الله وعبده.. وتقع المعاهدة دائمًا في

بداية أمر ما، فهي ليست نهاية له، وهكذا عبادة الحج، فمن يعود بعد أداء مراسم الحج فقد رجع بعد عقد معاهدة مقدسة مع ربه، ويجب عليه ألا يخلد لحياته على سابق عهدها قبل الحج، بل يجب عليه أن يبدأ العمل وفق أحواله وكفايته طبقًا لما عاهد ربه، فالعودة من الحج عودة من مقام العهد إلى مقام العمل، ولا تنتهي مسؤوليات الحاج بعد الانتهاء من الحج، بل تزداد وتكبر في حقيقة الأمر.

وما هي معاهدة الحج؟ إنها عزم إعادة تاريخ معين، وهي إقرار باستعداد العبد لتكرار الحياة الإبراهيمية، فحين شاهد إبراهيم عليه السلام أهل العراق «المتحضرين» لا يصغون لكلامه حول التوحيد والآخرة، وضع خطة جديدة لعمله بأن أخضع نفسه وأسرته لأشد التضحيات فأنشأ نسلاً جديدًا، لقد حوّل إبراهيم عمل الدعوة إلى خطة عظيمة، وقام بكل ما كانت هذه الخطة تقتضي منه من تضحيات.

وهكذا يجب على الإنسان أن يقوم اليوم بكل ما تقتضيه الظروف، وأن يظل صابرًا على هذا الدرب إلى أن تحين منيته، أو أن يصل إلى هدفه المنشود.

إن الحج عزم على إعادة هذا التاريخ بصورة رمزية في أيام الحج، وبصورة عمل مخطط في الحياة الحقيقية بعد انقضاء أيام الحج.

هذه هي طاقة من معالم الحج وهذه بعض مقاصده وثماره... انتقيت اكثرها من كتابات متناثرة هنا وهناك عرضت لي، فرأيت من المناسب جمعها وترتيبها مع حذف أشياء وإضافة أخرى...